الفصل الثالث

أولاً: فضل الحضارة الإسلامية فى المدنية الأوروبية

عندما امتلك المسلمون ناصية الثقافة فى القرون الوسطى، ونعموا بحرية الفكر والرأى، ونالوا من الحياة الفاضلة الكريمة أَوْفَى نَصِيب، كان الفقر والتخلف يعم أنحاء أوروبا، التى كان يغطى الكثير من مساحاتها الغَابات الكثيفة، وتنتشر بها المستنقعات المتناثرة فى أرباض المدن، والتى تنبعث منها الروائح الكريهة، والغازات السامة، والأبْخرة الضارة، كما أنها المصدر الأساسي للأوبئة الفتاكة.

وكانت البيوت فى باريس ولندن تُبنى بالحجر غير المنحوت، والطين المخلوط بالقش، وهى ضيقة النوافذ غير محكمة الإغلاق، وأرضها تغطى بالقش المنثور، لأنهم ما كانوا يدرون بعد ما البُسط!، ولم يكن الناس فى تلك المنازل أحسن تمسكنا وأمنا من الحيوانات التى كانوا يؤونها معهم أو يربونها من أجل الحياة على إنتاجها من لحم، ولبن، وما تساهم به فى الزراعة البدائية.

وكان الغربيون فى تلك القرون متوحشين جاهلين، لا أمن فيهم، ولا إدارة، ولا حكام يعرفون واجبهم فى إقامة العدل، وتوطيد الأمن، وهم فى كل أحوالهم إلي حياة البادية أقرب منهم إلى حياة المدن.

وإلى القرن قبل الماضى لم يعرف ملوكهم فضلا عن استخدام المراحيض ولا الحمامات، وكانوا يبصقون على الطنافس[1] والمقاعد حتى فى قصر العظماء.

وكانت الأسرة من الأوروبيين تنام فى حُجرة واحدة، تضم الرجال والنساء والأطفال، وكان السرير عندهم عبارة عن كيس مملوء بالقش، وفوقه كيس مملوء بالصوف يستخدمونه كوسادة، وكان الواحد منهم ينام وفوق رأسه سلاح لصد هجوم يتوقعون قيام اللصوص به، ولم تعرف شوارعهم المجارى ولا المصابيح.

وقد عمّت الجهالة أوروبا، وسادتها الأوهام، وانحصر التداوى عندهم فى زيارة الأماكن المقدسة، بينما كان رجال الدين منهم يفزعون إلى الصلوة إذا دَاهَمَ البلادَ وباءٌ، أوْ مرض فتّاك، ومع إهمالهم أمر النظافة فتكت الأوبئة بالملايين منهم.

---

(١) الطَّنْفَسَةُ: البساط (ج) طنافس، وتنطق بضم الطّاء، أو فتحها أو كسرها مع فتح الفاء أو كسرها أو فتح السين أو كسرها.

واجتمعت الأضداد فى أوروبا حيث الغرب الأوروبى يَسْكنه الناس فى مدن صغيرة وأكواخ حقيرة، وكانت قلاعهم لا هندسة لها، وسادت ممالكهم الإضطراب لدوام الحروب والمنازعات، ومن ثم انعدم الإحساس بالأمن لإنتشار عمليات السلب والنهب والسطو على المسافرين، بالإضافة إلى عمليات السرقة المنظمة التى يمارسها اللصوص المحترفون،، بينما الجنوب الشرقى لأوروبا شُيِّدَت فيه المدن الضخمة مثل القسطنطينية، وغيرها، على النسق المعمارى - العربي والإسلامى - فى كل من دمشق وبغداد والقاهرة، وقد حوت كل مدينة من هذه - القصورَ الفخمة، والحدائق الغنَاء، والأسواق والمدارس - وتناثرت حولها القرى والضياع، وقد نعم التُّجارُ والمسافرون بالأمن والسلام وهم فى حركة دائبة آمنين مطمئنين(١).

وفى ذات الموضوع ذكر كاتب غربى «لاشك أن العالم الإسلامى، والعالم البيزنطى - كانا أغنى، وأحسن نظاما ونورا من العالم الغربى، فكان النصارى يشعرون بنقص فى التهذيب، ويعجبون باهتين بما شاهدوه من غرائب الشرق، وكان من يحب أن يتعلم منهم يقصد إلى مدارس العرب(٢).

بينما كان شارلمان أعظم ملوك أوروبا، وحاكم فرنسا وألمانيا، وشمال إيطاليا. كان أقرب إلى الأمية منه إلى نور العلم، وكان أدَبُ عصره فى فرنسا يشبه أدب الصبيان فى المدارس اليوم، بَيْنما كان الخلفاء والملوك المسلمون يجمعون العلماء فى قصورهم ليتناظروا فى العلوم المختلفة، وما كان لهم من مجلس يخلو من العلماء الذين يُنْصتُون لهم ويأخذون عنهم، ومن الخلفاء من يستصحبون العلماء فى غزواتهم، أو يأخذون أحمالا من الكتب فى رحلاتهم(٣).

وكان علماء الإسلام يتنافسون فى مختلف العلوم العقلية، والأدبية، والمادية، ويُترجمون تراثَ الأقدمين من اليونانية، والسريانية، والفهلوية إلى لغتهم العربية، ولشدّة ولع الخليفة المأمون بذلك طلب من عدوّه قيصر الروم أن يرسل ما عندَه من كُتب الإغريق ليقوم العرب بترجمتها(٤).

وقد بدأ العالمان الشرقى والغربي يتعارفان فى القرن الحادى عشر الميلادى، ودخل النصارى المتوحشون حمىَ الإسلام والمسلمين المتمدنين عن طريق الحرب والتجارة، خاصة فى عصر الفتوحات الإسلامية.

---

(١) التاريخ العام - لأنيس ورامبو - بتصرف.

(٢) تايخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامى ط.ث ص٢٠٢.

(٣) تاريخ الحضارة - سينوبوس.

(٤) مروج الذهب - للمسعودى.

أما أوروبا الشرقية الشمالية فلم تكن بأحسن حالا، أو أوفر حظًا من أوروبا الغربية حيث كانت الأولى تعيش فى همجية مطلقة، وتاريخ روسيا فى القرن التاسع الميلادى لم يكن قد بدأ، وكانت أقطارها الواسعة مسرحًا لقبائل من الصقالبة، يتسلط التتار عليها، ويسومونَها سوء العذاب، ودامت أيام الجهالة فى روسيا إلى ما بعد ذلك بقرون، ومما يُتعجّب منه أن شبّت فيها حرب أهلية بين السكان، كان سببها الإختلاف فى عدد الأصابع التى يجب استعمالها فى إشارة الصليب، ولم تتخلص روسيا من قيود الجهل إلا فى القرن الثامن عشر على يد مصلحها بطرس الأكبر(١).

وقد طال عهد الجهالة فى أوروبا، وتعمقت جذوره فيها حتى لم يعد أهلها يشعرون بما هم فيه من الهمجية والتوحش.

وفى القرن الثانى عشر أحست بعض العقول المستنيرة بوجوب التخلص من الجهل المتراكم، وطرقوا لأجل هذا أبواب العرب، وهم أرباب الفكر فى العالم آنذاك.

وقد وصل علم العرب إلى أوروبا عن طريق جزيرة صقلية، وإيطاليا، والأندلس والشام.

ومن الجدير بالذكر أن الأسبان أحبوا العرب لما رأوه من فوارق شاسعة بين المدنية الإسلامية العربية، وما كان عليه حكامهم السابقين من الجهل والتخلف، وقد أخذوا يتأثرون بما كان لدى حكامهم من المسلمين، وقبل إنتهاء قرن واحد من الحكم الإسلامى لإسبانيا، كانت قد أخصبت المزارع فى أسبانيا، واتصل العمران، وتزاحم الناس بالمناكب فى المدن، وأمست (قرطبة) التى أنشأها المسلمون تُنار بالمصابيح ليلا، ويستضئ الناس بنورها إلى مسافات بعيدة.

وتُعدُّ قُرطُبة أول مدينَة فى العالم كان لها ذلك، وقد بلغ سكانها المليون من الأسبان المسلمين، وبلغ عدد دورها «مائتى ألف دار»، وعدد قصورها (ثمانين ألفًا، أما مساجدها فقد بلغت ألفا وستمائة(٢).

وقد طبق المسلمون العلم على الصناعة والزراعة حتى أن الأسبان مازالوا يعيشون إلى اليوم على السدود التى أقامها العرب والتى بفضلها جرت المياهُ إلى كل أسبانيا تحمل الخصب والنَمَاء والخير بما نفع أوروبا بعد ذلك. حتى أصبح من المتعذّر على المرء أن يستقصى جهود العَرَب فى تغيير الأندلس، وتنوير أوروبا بفضل عظيم هندستهم، وإبداعهم فيما شيّدوه من القصور والمدن، وقد أدْخَلَت صناعاتهم إلى

---

(١) أصول الشرائع لبنتام.

(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية.

أوروبا ما لم يكن معروفاً فيها وليس لأهلها عهد بمثله من قبل: مع ما نشروه فيها من العلوم والفنون والآداب.

وقد أنشأ العرب في (بالرم) عاصمة صقلية أول مدرسة للطب لم يعهد مثلها في جميع أوروبا، وقد أُنشِئَت جميع مدارس الطب في الغرب بعد إنشاء مدرسة صقلية بأعوام.

هذا وقد تأثر الصليبيون الأوروبيون بحضارة المسلمين في بلاد المشرق أثناء وجودهم بالديار العربية في فترات الحملات الصليبية، ونقلوا إلى بلادهم الكثير من مظاهر تلك الحضارة.

وأخذت أوروبا عن العرب كل شيء (الطب، العمارة: الهندسة، التاريخ، الجغرافيا، فنون الزراعة، علوم الفلك: الرياح، البحار) ولم تكتفي بمجرد الإقتباس أو الاستنفاع بالمُتاح، بل راحت تطور وتطور، وتبتكر وتعدل، وتضيف وتحذف، حتى نجحت في تذليل الصعاب في حياتنا نحن، بل وفي ترفيه الحياة ذاتها، وتَيْسيرها، وجعلها سلسلة ممتعة، وجعلت كل شيء قريباً وسهلاً بحيث أصبح في متناول الإنسان أن يجد الماء المثلج في عز الحر، وبضغطة زرّ يمكنه تسخين الهواء في عز الشتاء، كما أصبح في متناول يده أن يرفع سماعة التليفون ليتحدث إلى آخر في أمْريكا أو الهند في البحر أو الجو أو على الأرض سواء في ذلك، أو بضغطة زر آخر يرسل رسالة مكتوبة عبر الفاكس، ويتلقى الرد عليها في الحال، وكذلك يمكنه أن يحمل في جيبه سنترالا كاملاً لا يتعدى حجم إصبعي اليد الواحدة، ليخاطب به أي إنسان في أي مكان في العالم، وأن يراه في التو والحين عبر شاشة تليفونه المحمول (الموبايل) وفيه كذلك إرسال واستقبال الرسائل، والبريد الإليكتروني، بل والجديد من نماذجه الآن (يحدد القبلة للمصلين).

ثم انظر إلى هذا الحاسب الآلي (الكمبيوتر) الذي يحفظ في ذاكرته كل ما يُملى عليه، حتى كاد أن يلغي السجلات اليدوية في مختلف المصالح والدواوين، وقفز بعيدا حتى تم استخدامه في إدارة المصانع، وتوجيه الطائرات والتحكم في الصواريخ، وإدارة الحروب والعمليات العسكرية، كما يمكن أن يتسع لدوائر معارف كاملة في كثير من فروع العلم والمعرفة، كما يُغْني مستخدميه عن أجهزة الفيديو، والمسجلات لإحتوائه على برامج تشغيل تحل محل هذه الأجهزة، فضلا عن إمكانياته الهائلة في إحضار العالم بين يديك بمجرد نقرة على الفارة (mouse) حيث يمكنك استدعاء أي جريدة أو مجلة لحظة إصدارها، كما يمكنك قراءة الإصدارات السابقة من

تلك المجلات والجرائد من خلال الأرشيف الخاص والمعروض أمامك على الشاشة، ويحمل هذا الإختراع العجيب مفاتيح كل شيء: الحلال والحرام، الأدب وقلة الأدب، المباح والمنكر – كل شيء موجود– كل شيء مباح كل شيء أمامك : المواقع الإسلامية، والعلمية والثقافية، والأدبية، والجنسية بالآلاف. أنت فقط عليك الضغط على الماوس لترى أو تفعل أى شيء، ما يطيب لك أو ما يسئ إليك.

كما أصبح بمقدور الإنسان الضغط على زر آخر ليَعرف أخبار العالم، أو أن يَأتى بفرقة موسيقية تغنى لك وترقص على شاشات التليفزيون، كما يمكن مشاهدة المسابقات الرياضية مباشرة على الهواء فى كل بقاع الدنيا بواسطة الأقمار الصناعية التى تنقل كذلك الأخبار والأحداث لحظة وقوعها بالصوت والصورة من كل أقطار الدنيا، ومختلف كواكبها.

وهكذا استطاع الإنسان الغربى أن يعيش حياته بطولها وعرضها، كما يعنُّ له ويطيب، وقد استطاع أن يتعمق فى معيشته، وأن يستمتع بملذاتها، واستغلال إمكاناتها، وتكريس ثرواتها.

وعلى الجانب الآخر فقد تخلف الركب العربى والإسلامى عن مواكبة التَّطورات والإبداعات والإختراعات، وباتوا مستهلكين لصناعات الغَرب، ومنتجاته الخبيثة غير قليل من مجموع دول العالم الإسلامى تأتى مصر فى مقدمتهم ثم العراق – قبل الاحتلال – وإيران – والباكستان – وماليزيا .

أما العراق فقد أحرز تقدما هائلاً فى صناعته العلمية والعسكرية، وبذل جُهدا حثيثا وجبارا فى مجالات أبحاثه العلمية والتقنية حتى تمكن من إنتاج صاروخ يصل مداه إلى تل أبيب وبإمكانه حمل أسلحة دمار شامل (كيمَاوية، وبيولوچية) وهو الأمر الذى اعتبرته الولايات المتحدة الأمريكية خطرا على إسرائيل، وبالتالى فإنه يهدد مصالحها الاستراتيجية فى المنطقة والعالم، فتآمر عليه المتآمرون (بريطانيا، أمريكا) وبعض الجنسيات الأخرى حتى سقطت بغداد فى التاسع من إبريل عام ٢٠٠٣م تحت المجنزرات الأمريكية والبريطانية، وتحاك الآن مؤامرات فى الخنادق ضد كل العواصم العربية والإسلامية بلا استثناء[١].

وكان لسان حال الغرْب ينطق بنيته الجادة وعزمه الأكيد على إفساد، أو وأْد أى محاولة عربية أو إسلامية للنهوض والتقدم، ونسف كل المحاولات الجادة لإعادة بناء الأطلال.

---

(١) انظر كتابنا وحيد القرن ورياح التغيير .

يأتى هذا فى الوقت الذى فيه يلهث التاريخ، وتهرول فيه الأحداث، ويتقارب معه الزمان فى إيقاع سريع. ولعنا نلاحظ أن ما بين عصر الفَضَاء والكمبيوتر والهندسة الوراثية غير سنوات قليلة لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة ولعنا نرقب كذلك أن ما بين اختراع وآخر لا يزيد عن أيام قليلة.

والغريب هو استسلام المسلمين المُهين لحال العجز والتخلف، الذى باتوا فيه منذ آمنوا بسياسة التحللية والقطرية والدُولية، على الرغم من مقومات الوحدة (الطبيعية والجغرافية، والثقافية، واللغوية، والتاريخية) هذا بخلاف الأغلبية الدينية بين الكثير من دول العالم الإسلامى خاصة العربى منه، على الرغم من الواقع على رؤوس الأشهاد من وجود دولة قارة فى أقصى الشرق هى (استراليا)، وقارة دولة عند أقصى الغرب هى (أمريكا) التى تتكون من خمسين ولاية تجمعت فى اتحاد فيدرالى، واستطاعت قبل انقضاء القرن الرابع على تأسيسها أن تنفرد بحكم العالم، وأن تتربع على عرشه.

بينما هناك ٤٧ (سبعًا وأربعين) دولة إسلامية، أو هى حُسِبت على الإسلام كَمًّا لا كيفًا، اكتفت جميعها بمصمصة الشفاه، واللطم على الخدود، وضرب الفخذين باليدين.

وتقول الإحصاءات أن ٨٥٪[1] من المال العربى يذهب فى استثمارات داخل أوروبا، وأمريكا، لإنعاش إقتصاديات هذه الدول، ويبقى ١٥٪ من المال العربي تخطط إسرائيل لاحتوائه فى مشروع شيمون بيريز المعروف (السوق الشرق أوسطية).

تلك هى خريطة لحال القوم الذين ظلموا أنفسهم بعد أن حملوا المشاعل للآخرين.

* * *

ثانيًا : خطر اسمه الإسلام

لقد أصيب الكفار وأعوانهم بالفزع والخوف، وتولد فى قلوبهم الرعب من الوحدة الإسلامية التى جمعت بين المسلمين، والتى حملت إليهم مشاعل الحضارة والنور والفكر والثقافة، فراحوا يتآمرون، ويكيدون كيدا كبارًا لمشاغلة المسلمين وقتالهم، والهجوم عليهم فى ديارهم لأنهم يرون الإسلام خطرًا على وجودهم، وما هذه غير (هوجة) يثيرها الغرب الصليبى مدفوعا من الصهيونية العالمية أو متعاونًا معها، كل يوم عن خطر يسمونه الإسلام والمسلمين.

---

(١) الطريق إلى جهنم ص ٣٨.

وبالنظرة الموضوعية المجردة إلى الواقع الإسلامى، لا نرى خطرا مرتقبا من أى نوع أو من أى حجم، سواء فى الحاضر أو فى المستقبل القريب من تلك الدول الإسلامية المنكوبة.

وما نرى حولنا سوى دول مفككة لا يجمعها رابط، ولا يضمها لواء، بعضها تابع، وبعضها عميل، وبعضها محتل، وبعضها يضرب بعضها، وأكثرها يعيش تحت خط الجوع، ويتسول خُبزَه، وكلها إسلامية بالإسم فقط، عَلمانية الهوى، لم يبق من أصوليتها إلا لحىً مطولة، وجلاليب مرسلة، ومسابح مزوقة، ومصاحف منمقة، وأكثرها شكليات غير ذات موضوع، وتقاليد غير ذات مضمون.

والقابضون على دينهم من هذا الجمع المختلف يمشون فى حالهم إلى جوار الحائط لا ينازعون أحداً ولا يدرى بهم أحد، وهم قلة من الراكعين الساجدين فى الخفاء، لا يرجون من الدنيا إلا وجه ربهم ولا دخل لهم بأمريكا ولا بألمانيا ولا بإيطاليا ولا بأسبانيا – أين هو إذا ذلك الخَطر الوهمى، الذى راحوا يجمعون قواهم له، ويُشمرون عن سواعدهم، ويربطُون جأشهم حتى لا تقوم الوحدة الإسلامية من جديد فتعود كما كانت، فتُخلص العالم من سيطرتهم ورأسماليتهم، وتُطهر الأرض مِنْ عَلْمانيتهم وتملأ الأرض عدلاً بعد أن مُلئت جوراً.

ولقد نصّت تقاريرهم السِّرِّية على أقوالهم التى ذكتها أفعَالُهم، منها ما قال لورانس براون «إذا اتحد المسلمون فى امبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطراً، أما إذا ظلوا متفرقين فإنهم حينئذ يظلون بلا قوة ولا تأثير»[1].

ومن التقريرات السرية التى نشرت أخيرا، والتى كشفت عن عداء الغرب النصرانى للوحدة الإسلامية تقرير وزير المستعمرات البريطانية (أورمس غو) الذى جاء فيه «إن الحرب علمتنا أن الوحدة الإسلامية هى الخطر الأعظم الذى ينبغى على الإمبراطورية أن تحذره وتحاربه، وليست إنجلترا وحدها هى التى تلتزم بذلك بل فرنسا أيضاً، ومن دواعى فرحتنا أن الخلافة الإسلامية زالت، لقد ذهبت، ونتمنى أن يكون ذلك إلى غير رجعة، إن سياستنا تهدف دائماً وأبداً إلى منع الوحدة الإسلامية، أو التضامن الإسلامى، ويجب أن تبقى هذه السياسة كذلك[2]».

لقد نطقت ألسنتهم بالكفر مما امتلأت به صدورهم من حقد مرير، وغِلٍّ كامن على الإسلام وأهله، لأنهم يرونه الجدار الوحيد أمام سياستهم الإستعمارية الرامية إلى

---

(١) احذروا الأساليب الحديثة فى مواجهة الإسلام ص١٣٥ سعد الدين السيد صالح.

(٢) المرجع السابق.

إحتلال العالم، وفى ذلك قال لورانس براون (إن الإسلام هو الجدار الوحيد فى وجه الإستعمار)[١].

كما يرونه جداراً صَلْباً يحول دون انتشار المسيحية، وتمكين الإستعمار من العالم الإسلامى، وفى هذا السياق قال أحد المبشرين (إن القوة الكامنة فى الإسلام هى التى وقفت سدا منيعا فى وجه انتشار المسيحية، وهى التى أخضعت البلاد التى كانت خاضعَة للنصرانية)[٢].

وجاء فى تقرير لأشعيا بومان نشرته مجلة العالم الإسلامى التبشيرية (إن شيئاً من الخوف يجب أن يسيطر على العالم الغربى من الإسلام، ولهذا الخوف أسباب، منها أن الإسلام منذ ظهر فى مكة لم يضعف عدديًا، بل أتباعه يزدادون بإستمرار، ومن أسباب الخوف أن هذا الدين من أركانه الجهاد)[٣].

إنهم يخافون من العملاق، ويرهبون هذا الدين القيم الذى يخالف عقيدتهم، ويغاير معتقداتهم، ويبطل أفكارهم، ويُفسد طموحاتهم، وذلك لأنه الدين الذى لا يُقرُّ مبدأ السيطرة، ولا فرض الرأى بالقوة على الآخرين. فنبينا ﷺ لم يقاتل إلا من قاتلوه وما حارب إلا من حاربوه واضطهدوه.

كما يحمل ديننا الحنيف هموم الحلال والحرام، ويشرح منهج الدنيا ويبين طريق الآخرة.

ولا حرج إذًا فى التأكيد على أن سرّ هذا العداء المستحكم الذى يناصبونه المسلمين أن يكون دافعه الحقيقى الحقد الكامن والحسد والرغبة فى أن يجرونا إلى هاويتهم، لنكتوى بمصير واحد، حيث يصبح المسلم علمانيا، حسبه للخلاص من المؤامرات والمكائد أن يصير علمانيا ويتمرد على دينه بالتطاول والنكران.

فالمنهج العلمانى يقوم فى الأصل على أن تفعل ما يحلو لك مادمت لا تُؤذى غيرك - ليس أمامك إلا هذه الدنيا فخذ منها أقصى ما تستطيع، واستمتع بجسمك، وأشبع رغباتك دون وسواس ما دمت قد فُزت برضا الآخرين - وللشواذ فى هذه الحضارة حقوق مثل الأسوياء، ولهم نواديهم ولهم حق ترويج منكراتهم والدعوة لها، والأقمار الصناعية تذيع تلك المنكرات علانية، وتوصلها إلى كل صاحب «دش» فى بيته وفى غرفة نومه، وتقوم بذلك دول كبرى، وشركات كبرى، وقد أغلقوا على

---

(١) التبشير والإستعمار ص١٨٤ - الخالدى وفروخ - ط الرابعة.

(٢) الإسلام والتنمية الاقتصادية ص٥٦٠ جاك أوسترى.

(٣) التبشير والإستعمار ص١٣١.

الأديان أبواب الكنائس والمساجد حتى لا تُعكّر صفوهم- أمَّا الله - فهو فكرة غير مطروحة عندهم، والغيب لا وجود له، ومعنى هذا أنهم هم الذين يفرضون منهجهم، وأسلوب حياتهم عَلينا بالصحيفة والكتاب والسينما والمسرح والتليفزيون والأقمار الصناعية، وهم الذين أعلنوا علينا الحرب ليس فقط بالتصفية الجسدية، والمذابح، وإنما بالتصفيات الفكرية والعقائدية، والغزو الثقافي(١).

﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾

[البقرة : ٢١٧]

* * *

ثالثًا : إنهيار الخلافة الإسلامية

عندما انهارت سلطنة (قُونْية) بوفاة سلطانها «علاء الدين كيقابد الثالث» سنة ١٣٠٧ من الميلاد، أخذ عثمان (١٢٩٩ - ١٣٢٦م) إبن «أرطغرل» أحد زعماء القبائل التركية الكبيرة التى استقلت فى آسيا الصغرى عند خراسان، وقد سُمِّيت الدولة العثمانّية باسمه.

وقد أخذ عثمان وأتباعه فى التوسع فى سرعة تَستَرعى الإنتباه على حساب تلك الدولة المنهارة، وبعد وفاته خلفه ابنه الأكبر (أورخان) ٣٣ سنة (١٣٢٦ : ١٣٥٩م) الذى استطاع دخول (نيقْيَة) إسنك الحالية سنة ١٣٢٩م.

ثم قام سليمان الإبن الأكبر للسلطان أورخان بالإستيلاء على شبه جزيرة «جاليبولى» فى ١٣٥٤م، وهى أول أرض يستولى عليها العثمانيُّون، ومات سليمان فى ١٣٥٨م قبل والده أورخان الذى توفى فى العام التالى مباشرة ١٣٥٩م.

ثم آل العرش العثمانى للسلطان مراد الأول الذى استولى على (سالونيكا) وأدرنه فى ١٣٦١م، ووصل إلى الشمال الآسيوى، وجَرَّهُ ذلك للإشتباك فى حروب ضد «بلغاريا والبوسنة والصرب»، ونجح العثمانيون فى إخضاعهم، ثم دارت معركة بين الصرب والعثمانيين خَرَّ فيها ملك الصرب قتيلاً، ثم قُتِل مراد هو الآخر على يد أحد نبلاء الصرب.

وآل العرش العثمانى إلى السلطان سليم الأول الذى كانت لديه الرغبة الملحة فى السيادة على العالم الإسلامى، تمثلت هذه الرغبة فى التحرُّش ضد الفرس (الشيعة) فى عصر الشاه «إسماعيل الصفوى»، ثم أحاك المؤامرات ضد أرض الحجاز لفرض سيطرته على مكة. ودخوله مصر، وقد تحقق له ما أراد.

---

(١) الطريق إلى جهنم ص٦٧ بتصرف.

وتَجدر الإشارة إلى أن مراد الأول عندما تقدم إلى الشمال الآسيوى وتمكن من إخضاع الصرب، وبلغاريا، والبوسنة، بدأ عمليا فى تطبيق الشريعة الإسلامية من غير تدرج على شعوب لم تدرى بعد ما الإسلام، باستثناء شعب البوسنة، ونفّذ أحكام الشريعة كاملة فى تحريم الخمر كما أنه رجم الزناة... إلخ[1].

وعلى جانب آخر – كان تعاون «الشريف حسين بن على» المضطلع بمهام شرافة مكة المكرمة مع الإنجليز ضد تركيا على أمل مساعدته فى الإنفصال عن الخلافة التركية ومعاونته فى تحقيق حلمه الكبير فى إقامة خلافة إسلامية عربية، بينما كان يحظى الشريف حسين بتأييد كبير ودعم مطلق من خديوى مصر «عباس حلمى الثانى» الذى تزعم مبكرا فكرة الصراع ضد الإستعمار، وانحاز الخديوى مع مصطفى كامل، ومحمد فريد فى الثورة على الإستعمار الإنجليزى، وانضمت لهم جموع الشعب.

الأمر الذى اعتبرته بريطانيا خطرا عليها فى مصر والحجاز، فقامت بخلعه فى ١٩/١٢/١٩١٤ م، وعينت «حسين كامل» ابن اسماعيل سلطانا على مصر ليصبح العوبة فى يدها ليتحقق للإنجليز أمرين هائلين بالضرورة:

أما أحدهما: فهو ضمان توقف مصدر الدعم المتدفق للشريف حسين، وتجفيفه وأما الآخر: فهو إجهاض الثورة فى مصر.

ومن جانب واحد أعلن الشريف حسين بن على الإستقلال العربى عن تركيا فى ٦/١٩١٦م، وبدأت قبائل الحجاز فى مهاجمة الحامية التركية فى مكة بنيران بنادقها فى العاشر من يونيو، وقد تمكن الثوار العرب فى ٩/٧/١٩١٦م من استلام مكة المكرمة من الأتراك بعد أن قدمت بريطانيا دعما لقوات الشريف حسين قوامه سريتى مدفعية، وقد سقطت جدّة بعد أسبوع، وسقطت رابغ، وقُنفده، فى سبتمبر من العام ذاته.

أما ينبع فقد حاصَرَ البريطانيون القوةَ الألمانية الموجودة بها واضطروها للإستسلام.

وفى إطار المواجهة بين الحلفاء والمحور، وفى حيز الحرب التركية البريطانية المباشرة تمكن الجنرال (أدموند اللنبى) من احتلال القدس فى ٩/٩/١٩١٧م، ثم تمكن من أن يوقع هزيمة ساحقة بالأتراك عند (تل المتسلم) بشمال فلسطين، وقد أنهت هذه المعركة الوجود الفعلى للإمبراطورية العثمانية، وقد أعلنت الإمبراطورية العثمانيّة استسلامها فى الحرب العالمية الأولى بعد هزيمتها على كل الجبهات فى ٢٩/١٠/١٩١٨م.

---

(١) مصر فى عهد المماليك والعثمانيين بتصرف /أ.د. عبدالعزيز محمود عبدالدايم.

وقد تقدم عبدالله بن الشريف حسين ليتولى إمارة شرق الأردن، وتمكن أخوه «فيصل الأول» من الجلوس على عرش العراق، وقد حقق الشريف حسين بعض النجاحات مُستغلاً المعطيات التى منحتها إياهُ المستجدات الدولية الراهنة.

استشعرت بريطانيا الخطر العربى المتنامى الرامى إلى إقامة خلافة إسلامية عربية، فتآمر الإنجليز ضد الشريف حسين من خلال تقديم حكومة الهند الإنجليزية كافة أشكال الدعم وأخطر الإمدادات وكل صنوف العون والمؤن للقادم من البادية «عبد العزيز آل سعود» الذى تمكن من بسط نفوذه على الحجاز، ومن الإطاحة بالشريف حسين الذى فرّ إلى الخارج، واعترفت بريطانيا بإبن سعود «مَلِكا» على الحجاز فى اتفاقية جدة سنة ١٩٢٧م.

تلك فى مجموعها العوامل التى أثّرت وبشكل كبير ومباشر فى انهيار الخلافة الإسلامية التركية حيث تعرضت لحركات تزمر وتمرد داخلية شديدة قادها الصرب وأعوانهم، وقد ترك ذلك ميراثا هائلا من الحقد المرير داخل صدور الصرب يحملونه ضد كل ما هو إسلامى حتى اليوم ولعل أحداث البوسنة والهرسك تنطق شاهدة على ما نقول، كما أن العنصر العربى لعب دوراً خطيراً فى استدعاء واستعداء الإنجليز ضد تركيا، ناهيك أن الرفض الأوروبي العارم والمطلق لفكرة وجود دولة إسلامية سُنيّة داخل أوروبا كان على أشُدّه ولم يزل.

وهكذا إنهارت الخلافة الإسلامية العثمانية، وتبخرت أحلام الشريف حسين بن على فى إقامة خلافة إسلامية عربية بعد أن قضى تماما على آخر خلافة إسلامية فى التاريخ.

وبالقضاء على الخلافة الإسلامية التي كانت رغم بُعْدها حقا عن روح الإسلام، إلا أن الأعداء كانوا يخشونها ويخشون أكثر أن تتحول هذه الخلافة من خلافة شكلية إلى خلافة حقيقيّة تهددهم بالخطر.

وكانت فرصتهم الذهبية التى عملوا لها طوال قرن ونصف هى التى جاءتهم على طبق من ذهب بعد أن خرجت تركيا خاسرة مع حليفتها ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى، حيث دخلت الجيوش الإنجليزية، واليونانية، والإيطالية، والفرنسية أراضى الدولة العثمانية (الخلافة المنهارة) وسيطرت على جميع أراضيها ومنها العاصمة «استانبول».

ووقعت الواقعة مع البدء فى مفاوضات مؤتمر (لوزان) لعقد صلح بين المتحاربين، حيث اشترطت إنجلترا على تركيا أنها لن تنسحب من أراضيها إلا بعد تنفيذ الشروط التالية:

١ – إلغاء الخلافة الإسلامية، وطرد الخليفة من تركيا ومصادرة أمواله.
٢ – أن تتعهد تركيا بإخماد كل حركة يقوم بها أنصار الخلافة.
٣ – أن تقطع تركيا صلتها بالعالم الإسلامى.
وكان لبريطانيَا ما أرادت فى تركيا، وسلّم الأتراك لمطالب الإنجليز.

وانعقد مجلس العموم البريطانى بعد استقلال تركيا، وفيه وقف (كرزون) وزير الخارجية البريطانى يستعرض ما جرى فى تركيا، احتج بعض النواب الإنجليز بعنف عليه، واستغربوا وسألوا متهكمين كيف اعترفت إنجلترا باستقلال تركيا التى يمكن أن تجمع حولها الدول الإسلامية مرة أخرى وتهجم على الغرب؟

فأجاب كرزون: لقد قضينا على تركيا التى لن تقوم لها قائمة بعد اليوم لأننا قضينا على قوتها المتمثلة فى أمرين «الإسلام، والخلافة» فَصَفّق النوابُ، وسكتت المعارضة[١].

وهكذا تحقق لهؤلاء على الأرض نصراً جديداً يضاف إلى رصيد إنتصاراتهم فى سجل التاريخ الطويل الحافل بالصِّراع الدائم والمتجددة الذى يحوى كل صنوف الصراع بين الحضارات. ليرُضى أطماعهم المشهودة فى بقاع الأرض بعد أن حقق لهم السفاح اليهودى التركى (مصطفى كمال أتاتورك) أغلى أمانيّهم فى إلغاء الخلافة الإسلامية فى تركيا، وانتهى بذلك الوجود الإسلامى فى هذه الديار التى كانت معقلا للمسلمين بعد حوار دام طويلا أستخدمت فيه كل ألسنة الدبابات.

وما أن تم الإعلان عن إنهاء الخلافة وقيام الجمهورية فى تركيا حتى تسابق الصرب والبلغار فى الخروج من دين الله أفواجًا، ووقعت معارك طاحنة، ومجازر مروعة بين المسلمين من جانب والصرب البلغار من جانب آخر، وقع فيها مئات الآلاف من المسلمين صرعى ومشردين ضحايا لخنازير الدولتين الذين تَدعمهم الرغبة فى الإنتقام من الخلافة الإسلامية التى أكرهتهم على الدخول فى دين الله عن غير فهم لصحيح الدين، وتمولهم الصهيونية العالمية التى لن تتوان فى توظيف كل الأحداث وإن صغرت لمحاربة الإسلام والقضاء على المسلمين.

تزايدت حدة الإنفجار العدائى الصربى البلغارى ضد المسلمين فهدموا المساجد أو أحرقوها، ونكلوا بالمسلمين تنكيلا.

ولازال العداء مستحكما، والشر مستفحلاً فى الوسط الأوروبى بعد المؤامرة الدولية والإقليمية الكبرى والتى مارسها فى العلن كل من (كرواتيا، والجبل الأسود،

---

(١) نقلا عن: كيف هدمت الخلافة ص٩٠، والأرض والشعب ص٤٦ مجلد أول.

والصرب) ضد الدولة البُوسنيّة المسلمة، حتى تهدمت ديارها، وتشرد شعبها وقد لقى الثالوث الصليبى المذكور كافة وسائل الدعم المشروعة وغير المشروعة، المحرمة وغير المحرمة من خلال الدعم الهائل، والمدد الكبير الذى قدمه كل من « ألمانيا، وبريطانيا، واليونان، والفاتيكان، وإيطاليا » بخلاف التدخل الروسى المباشر – الرامون كلهم بسهام من نار فى صدور كل ما هو إسلامى سواء أكان أوروبيا أم غيْر أوروبى.

وقد تعرض المسلمون فى الوسط الأوروبى فى المنطقة التى كانت تخضع لأعمال السيادة الإسلامية فى زمن الخلافة العثمانيّة لعمليات إبادة جماعية منظمة وعلى فترات مختلفة مروراً بمراحل ثلاث، قدمنا لها تفصيلاً دقيقًا وتحليلا وافيا مستوفيا للأحداث الهمجية، والهجمات الشرسة فى مراحلها المختلفة[1].

ولم ينته الأمر عند هذا الحد بل تسابق الغرب الصليبى فى منافسة محمومة للتصارع حول التهام الوليمة العثمانية مترامية الأطراف فى العالم العربى والسطو على التركة (البلاد العربية) كاملة، وسرعان ما اتفق الأعداء فيما بينهم، فتوصلوا إلى صيغة إتّفاق لتقسيم الغنيمة بدلا من التصارع عليها كما سبق أن بينّا وكما سيردُ منه « حين المقام ».

ووقع العالم الإسلامى كله تحت وطأة الإستعمار فى العصر الحديث من السنغال غربا إلى أندونيسيا شرقا.

وهكذا إنهارت آخر خلافة إسلامية فى التاريخ.

* * *

رابعًا : (أ) الصليبية بين الشرقين – الأقصى، والأوسط

يتمتع الشرق الأوسط بموقع جغرافى فريد ومتميز بخصائصه الاستراتيجية التى تحدد ملامحه بين قارات العالم وأبعاده وزواياه، بما مكنّه من التحكم فى التجارة الدولية عامة، والإمساك بنواصى الطرق التجارية ذاتها.

حيث كانت التجارة بين آسيا وأوروبا عبر الشرق الأوسط تَسير انطلاقا من طريقين رئيسيين:

أحدهما: الطريق البرى: حيث الموانئ السورية واللبنانية، والفلسطينية، على الساحل الشرقى للمتوسط، ومنها عبر صحراء سوريا، فالعراق، وإيران، ووسط آسيا، ثم تنطلق إلى وجهات مختلفة، ومنها ما يتجه إلى الخليج الفارسى (آنذاك) حيث يتم تحميل سفن أخرى لنقل تلك التّجارة إلى آسيا الجنوبية، والشرقية والجنوبية الشرقية.

---

(١) انظر – المؤامرة الكبرى على العروبة والإسلام والإنسانية عبر مراحل التاريخ / للمؤلف.

الثانى: وهو ما عُرف بالطريق البحرى لأنه لا يتخلله إلا القليل من اليابسة، حيث كانت التجارة الأوروبية تاتى إلى شمال مصر عند ما تعرف الآن (بورسعيد) ثم يتم نقل تلك التجارة بالعربات إلى البحر الأحمر، لتستأنف رحلاتها البحرية بواسطة بواخر أخرى إلى مناطق آسيا، أما هذه المنطقة القليلة من اليابسة – فهى التى نفذت فيها فرنسا مشروع حفر قناة السويس الحالية للإستعاضة عن الرحلة البرية التى تعترض طريق المرحلة البحرية بعد ربط البحرين (الأحمر، والمتوسط) عن طريق القناة الجديدة التى حفرها المصريون بأظافرهم وقدموا لها أرواحهم الزكية حيث أجبرهم الفرنجة على أعمال الحفر قهراً بنظام السُخرة ومات منهم عشرات الآلاف لخدمة المشاريع الإستعمارية الأجنبية فى المنطقة

ومن ثم يمكن القول أن منْطقة الشرق الأوسط تحكمت وإلى حد كبير وبعيد فى التجارة الدولية وممراتها وطرقها، وحصلت منها على فَوائد عظيمة من أعمال النقل، ورسوم العبور، والضرائب – نتيجة لعبور هذه التجارة عبر أراضيها .

وعندما حدثت الأزمات الصعبة، وبرزت الصعوبات الجسام بين المسلمين فى أوطانهم، وخصوصا منطقة الشرق الأوسط، وبين أوروبا الصليبية من الجانب الآخر بسبب الإجتياح الصليبى لبعض المناطق مثل سوريا، ومصر، والشمال الإفريقى، والذى دارت بسببه صراعات دموية، ومصادمات مسلحة، دامت حوالى القرنين من الزمان، وقد انتهت بكسر شوكة الصليبيين، وانتصار الإرادة الإسلامية، وتَحررت على إثرها معظم البلدان العربية، إلا أن هذا المسلك العدائى الصليبى ترك جراحا عميقة مريرة فى نفوس أبناء الشرق مجتمعين .

وعندما بدأ الإجتياح الصليبى المذكور، كانت البرتغال وأسبانيا تقودان حركة صليبية ضد الإسلام والمسلمين فى كل مكان، وخاصة فيما يحرم أبناء الشرق الأوسط من مواردهم الهائلة عن طريق مرور التجارة من أراضيهم، فضلا عن البحث عن سوق أخرى بديلة وجديدة عن الشرق .

وكانت تلك بداية محاولات التحَول الأوروبى الصليبيى الإستعمارى الصريح نحو غرب إفريقيا، والذى بدأه البرتغاليون بالوصول إلى السنغال على ساحل المحيط الهادئ، ثم تطورت التطلعات البرتغالية حتى وصلت بتجارتها، وبعثاتها التبشيرية إلى جنوب القارة عند منطقة يقال لها (DIAS) تقع عند رأس الرجاء الصالح .

وقد شجع ذلك الإنجاز (فاسكودى جاما) البحار والمستكشف الجغرافى البرتغالى على مزيد من التطلعات فتقدم شرقا حتى وصل إلى الهند، ومنها انطلق نحو جزر الهند الشرقية .

وبهذا تعرضت مصر لخسارة عظيمة لفقدانها دور الوسيط الذى كانت تلعبه فى التجارة الدولية آنذاك، فاتجهت القيادة المصرية آنذاك نحو عمل جماعىّ بالتعاون مع موانى البحر المتوسط، والهند، بمشاركة بعض الأساطيل الهندية لمحاربة البرتغال وهزيمتها، والتقى الجمعان، ودارت معركة كبيرة بين مصر والبرتغال عند منطقة يقال لها (ديو) وقد انتهت بهزيمة القوات المصرية فيما عُرفت معركة (ديو عام ١٥٠٩م)[١].

وقد تمكنت البرتغال بعد أن كسبت تلك المعركة من السيطرة على هذا الطريق نحو قرن من الزمان، وأصبحت بذلك سيدة التجارة العالمية تقريبا بعد أن احتلت (مسقط، ومطرح) من سلطنة عمان وبعضا من مناطق الخليج العربى وأُخَر من مناطق شرقى آسيا.

وبهذا أصبحت العاصمة البرتغالية (لشبونة) مركزا محوريا للحركة التجارية الأوروبية، وقبلة التجار الأوروبيين الذين وجدوا كل تجارتهم فيها بيسر وسهولة، فى بديل أيسر وأرخص يعوضهم عن شراء أو بيع تجارتهم عبر الشرق الأوسط، وهو كذلك بديل آمن كونه يفادى أعمال القرصنة البحرية وسوء الأحوال الجوية التى كانت تُفقدُهم الكثير من تجارتهم أثناء رحلاتهم البحرية الطويلة، فضلا عن توفير الوقت والنفقات والجهد وتمنع الأزمات.

* * *

(ب) عبور المتوسط إلى الشام

بعد أن تمزقت الأمة الإسلامية، وسلكت مسالك القُطْرية، والتحللية على نحو ما ذكرنا سابقا، بدأت أوروبا تعمل مباشرة نحو تحرير أراضيها، وطرد الفاتحين الإسلاميين منها، ساعدهم على ذلك تفوقها فى المجالات العسكرية، والصناعات الحربية والمدنية على السواء بفضل قيام عصر النهضة الحديثة الذى تمكنت بفضله أوروبا من حيازة أسباب الرقى، والتقدم، فى العلوم، والفنون. وذلك على حساب النجم الإسلامى الذى أخَذَ فى الأُفول منذ أن تحولت التجارة إلى طريق رأس الرجاء الصالح الذى أضَرّ كثيرا بكل من مصر، والشام، والعراق.

وبدأت مع هذه التطورات الهائلة إيجابية النتائج غربا، سلبية الآثار شرقا تَتَابُعَ موجات الحملات الصليبية على المشرق العربى حتى تمكن الصليبيون من تاسيس أربع ممالك صليبية، ودانت لهم الأمور بعض الوقْت، حتى تمكن (إليغازى الأرتقى) صاحب حصن ماردين وحيفا من إبادة جيوش الصليبيين إبادة تامة فى إمارات

(١) التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ج٨ ص ٤٩٠.

أنطاكية، والرها، وبيت المقدس. فى معركة (سهل الدماء) قرب قنسرين فى ٢٨/٦/١١١٩م، ثم تمكن القائد السلجوقى «عماد الدين زنكى» فى ١٨/٦/١١٢٨م من إنْقاذ حلب من السقوط فى أيدى الصليبيين بسبب ضعف حكامها وأثناء انشغال المسلمين بقيادة زنكى بإنتزاع إمارة الرّها من الصليبيين التى دامت تحت حكمهم (٥٠) خمسين عاما متصلة، والتى كان باستعادتها بشير نصر نهائى على الصليبيين تمكن «ألفونسو» ملك البرتغال من إنتزاع لشبونة من أيدى المسلمين فى ١١٤٤م.

وما أن أتم عماد الدين زنكى حتى تآمروا عليه، وقتله أحد غلمانه فى ١١٤٦م وخلفه ولده نور الدين، وكان إغتيال عماد الدين زنكى مدعاة لتطورات جديدة، قام بها من تآمروا عليه وقتلوه. إذ سرعان ما انطلقت من أوروبا الحملة الصليبية الثانية بقيادة (كونراد الثالث) ملك ألمانيا، ولويس السابع ملك فرنسا، وقد انتهت بالفشل، وبعد أن أتم الله النصر على الحملة الصليبية الثانية، استطاع نورالدين أن يستولى على «حمْص» وأن ينزل بالصليبيين هزيمة كبيرة فى معركة لقى فيها أمير أنطاكية الصليبى مصرعه، ثم انتزع دمشق من حاكمها الخائن المتعاون مع الصليبيين سنة ١١٥٤م، وفى ١١/٨/١١٦٤م نجح نورالدين فى استدراج الصليبيين إلى «ارتاخ» وأوقع بهم هزيمة ساحقة، وأسر الملكين الألمانى والفرنسى دفعة واحدة.

وكان نورالدين زنكى قد حاول توسيع دولته فأرسل «أسد الدين شيركوه» نائبه فى دمشق الذى قام بمحاولة فى ٤/١١٦٤م لانتزاع مصر من أيدى الفاطميين، تمكن خلالها من احتلال بلبيس، والشرقية، إلا أن الوزير الفاطمى الخائن «شاور» استنجد بملك بيت المقدس (عمورى) وخَوَّل له حق حماية مصر من «شيركوه»، فتقدم عمورى، واستولى على بلبيس فى ٤/١١/١١٦٨م وارتكب مجزرة كبرى فى حق أهلها، ثم زحف صوب القاهرة، ومارس إجراما غوغائيا جعل الوزير الخائن ينقلب على عمورى، واحترقت مدينة الفسطاط فى الصراع بينهما وطلب شاور العون من نور الدين الذى وصل فى العام ذاته، واخترق الصحراء، وتقدم إلى القاهرة، وضم جيش مصر إلى جيشه، وانسحب عمورى عائدا إلى بيت المقدس وهو يجر أذيال الخيبة والفشل سواء فى رغبته فى حكم مصر مباشرة، أو فى إعدادها للحملة الصليبية القادمة إلى مصر، والتى وصلت بالفعل فى يوليو عام ١١٦٩م وقد حاول فيها الأسطول البيزنطى حصار دمياط، ولكنه فشل وانسحب.

وبعد وفاة أسد الدين شيركوه إثر فشل الحملة الصليبية سابقة الذكر أمر الخليفة الفاطمى بتعيين (يوسف بن أيوب) المعروف (صلاح الدين) وزيراً له بدلا من (شيركوه).

وسرعان ما أعاد صلاح الدين الأمور إلى نصابها فى عام ١١٧١م، وأسقط الخلافة الفاطمية، وأمر بالدعوة للخليفة العباسى، وأعاد مصر إلى قلب أمتها واستعد للزحف العظيم المظفّر إلى القدس.

وقد تمكن جيش صلاح الدين من فتح النوبة فى ١١٧٢م، ثم فتح اليمن فى ١١٧٤م، وبعد أن توفى نورالدين زنكى فى العام ذاته تقدم صلاح الدين فى العام التالى ١١٧٥م إلى الشام وانتصر على الزنكيين عند قرون حماه، وأعلن نفسه ملكًا على مصر والشام، وأقره الخليفة العباسى على ما فعله.

وبدأت جولات متواصلة من الكر والفر السريعة والمتلاحقة بين الصليبيين وأعوانهم من الخونة من جهة، وجيش صلاح الدين من جهة أخرى، وفى تلك الآونة تمكن الأتراك السلاجقة من إلحاق هزيمة ساحقة بالإمبراطورية البيزنطية التى انتهى عصر ازدهارها منذ ذلك الحين، وفى الوقت ذاته كانت معركة (تل السلطان) التى انتصر فيها صلاح الدين على التحالف الكائن بين الزنكيين والصليبيين بين (حماة، وحلب).

وفى سنة ١١٨٣م تمكن السلطان صلاح الدين الأيوبى من ضم حلب إلى مملكته بعد حصارها واستسلام حاكمها، وشرع بعدها فى لم شمل الأمة استعدادًا ليوم المعركة الفاصلة مع الغزاة الصليبيين، وأخذ يتجهز ويتهيأ لا يَكِلُّ ولا يفتر من الجهد المتواصل، والعمل الدؤوب (ليوم الفصل) حتى جاء الرابع من يوليو عام ١١٨٧م، فانقضّت جيوش صلاح الدين لملاقاة جيوش الصليبيين التى زحفت إليه عند (تلال حطين) بالقرب من بحيرة طبرية، فضربهم ضربة قاسية قاضية تمكن بها من سحق الجيوش الصليبية فى ما تعرف تاريخيا (موقعة حطين الكبرى).

واستمر فى جهده وجهاده حتى استعاد بيت المقدس فى ٢/١٠/١١٨٧م وحفظ دمائهم على عكس ما فعلوه هم حين دخلوا المدينة، حيث قتلوا سبعين ألف مَدَنِّى فى واحدة من أبشع مذابح التاريخ.

وقد سقطت المدن اللبنانية والفلسطينية فى أيدى صلاح الدين الواحدة تلو الأخرى عقب انتصاره الكبير فى موقعة حطين، ولم يهْنأ صلاح الدين بانتصاراته، فلم يمض عام ١١٨٩م حتى انطلقت من أوروبا الحملة الصليبية الكبرى الثالثة بقيادة

(ريتشارد قلب الأسد، وفيليب أغسطس) للإستيلاء على بيت المقدس، ودارت معارك عنيفة فى محاور مختلفة، ولم تتمكن هذه الحملة إلا من الإستيلاء على عكا بعد حصار دام عامين، حيث استسلمت المدينة فى ١٢/٧/١١٩١م، وبعد المقاومة العنيفة، والمعارك الطاحنة التى كبدت الصليبيين كثيراً من الخسائر البشرية جنح الصليبيون للسِّلم، ووقع معهم صلاح الدين (صلح الرملة) فى ٩/١١٩٢م الموافق عام ٥٨٨هـ.

وقد توفى البطل الإسلامى الكبير، المجاهد العظيم (صلاح الدين الأيوبى) فى الرابع من مارس سنة ١١٩٣م فى دمشق بعد خمسة أشهر من إبرام صلح الرملة ودُفن بجوار الجامع الأموى.

ولعل الموقف البطولى للمجاهد الأسطورى صلاح الدين الذى (دوَّخَ) الصليبيين وأزل أنفهم، وكسر شوكتهم، ووضع نهاية حملاتهم على الشرق، هو الذى فسر لنا ذلك التحالف القديم بين الصهيونيّة والصليبية ضد الإسلام وأهله.

فبعد سقوط القدس فى أيدى اليهود عام ١٩٦٧م قال (راندولف تشرتشل) رئيس الوزراء البريطانى فى الفترة ما بين ١٩٥١ : ١٩٥٥م لقد كان إخراج القدس من سيطرة الإسلام حلم المسيحيين واليهود على السواء، إن سرور المسيحيين لا يقل عن سرور اليهود، إن القدس قد خرجت من أيدى المسلمين، وقد أصدر الكنيست اليهودى ثلاثة قرارات بضمها إلى القدس اليهودية، ولن تعود إلى المسلمين فى أية مفاوضات مقبلة ما بين المسلمين واليهود[١].

وها هو الجنرال الفرنسى (جورو) عندما تغلب على جيش «ميسلون» خارج دمشق توجه فوراً إلى قبر صلاح الدين وركله بقدمه وقال (ها قَدْ عدنا يا صلاح الدين)[٢].

وتعددت الحملات الصليبية على الشرق حتى عبرَ الأوروبيون علنا عن جهلهم وتخلفهم حيث أرسلوا هذه المرة حملة من نوع خاص هى حملة الأطفال الصليبية الشهيرة فى عام ١٢١٢م والتى انطلقت من ألمانيا وفرنسا، قوامها بضع آلاف من الأطفال دون الستة أعوام فى مشهد غريب ولخدمة غرض أشد غرابة – هو استعادة بيت المقدس من أيدى المسلمين، بينما الأطفال يتخطفهم الموت داخل أوروبا ذاتها، وأعداد كبيرة منهم تقع فى أيدى تجار الرقيق داخل أوروبا لتُباع فى أسواق النخاسة

---

(١) حرب الأيام الستة / راندولف تشرشل.

(٢) القومية والغزو الفكرى ص٨٣.

دون إثم اقترفوه، أو ذنب ارتكبوه سوى التصديق بقول الدجالين المتاجرين بالدين المسيحى.

وفى ١٢١٧م حتى ١٢١٨م جاءت حملة عسكرية أخرى إلى عكا، وزحفت لغزو مصر عام ١٢١٨م وذلك فى عصر الملك العادل سيف الدين أبو بكر (١٢٠٠ : ١٢١٨م) وقد تولى الحكم بعده الملك ناصر الدين محمد بن العادل (١٢١٨ :١٢٣٨م).

* * *

(جـ) واحتدم الصراع

وحدث الخلل حيث أصيب العالم الإسلامى مترامى الأطراف بمجموعة من الإنتكاسات الشديدة، والهزات العنيفة المتتالية، حيث سقطت بخارى، وسمرقند الإسلاميتين فى أيدى جنكيز خان سنة ١٢١٩م وباتت مظاهر حضارتها فى خبر كان، وسقطت دمياط بشمال مصر على البحر المتوسط فى أيدى الحملة الصليبية الخامسة فى العام ذاته بعد حصار دام عدة أشهر، بينما جيوش جنكيز خان المغُولية تغزو الأقاليم الشّرْقية من الإمبراطورية العباسية، وجاءت الحملة الصليبية السادسة بقيادة «فردريك الثاني» امبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وقد تمكن من احتلال بيت المقدس سنة ١٢٢٨م، وقد اتفق الإمبراطور الرومانى مع السلطان الأيوبى (الكامل) ليقوم الأخير بتسليم بيت المقدس للصليبيين مقابل هدنة تعهد فيها الأول بمنع الحملات الصليبية لمدة (١٠) عشرة سنوات.

وتتابعت الإنتكاسات، وتوالت الهزائم، وحلت المصائب فوق رؤوس المسلمين فى دولة الموحدين فى (٦٣٣هـ: ١٢٣٥هـ)، وفى العام التالى سقطت قرطبة فى أيدى الأسبان المسيحيين، وفى المدة من ١٢٣٨ : ١٢٣٩م (٦٣٦هـ) سقطت تباعا مدن (بلنْسيه، مرسيه، قرطبه) سقوطا نهائيا فى أيدى الأسبان الشماليين المسيحيين.

وفى الشرق زحف الملك الأيوبى الناصر حاكم «الكرك» وفلسطين على بيت المقدس فجأة، واحتلها، وهدم تحصيناتها وعاد إلى الكرك فى ١٢٣٩م، ثم تحالف صاحب دمشق «الصالح اسماعيل»، وصاحب حمص «المنصور إبراهيم» مع الصليبيين ضد الصالح أيوب صاحب مصر، وتنازل الثلاثة للصليبين عن المسجد الأقصى، وقبة الصخرة.

وفى الغرْب سقطت مرُسية فى أيدى الإسبان المسيحيين فى ١٢٤٣م، وفى العام التالى ١٢٤٤م تمكنت القوة الخوارزمية العاملة مع الصالح أيوب من استرداد بيت

المقدس من الصليبيين، وفى العام التالى كانت موقعة «غزة» وفيها تمكن الجيش المصرى والخيالة الخوارزمية من سحق الصليبيين، والحلف الثلاثى الخائن الحليف، ثم زحف أيوب نحو دمشق واستولى عليها فى عملية تصحيح لمسار التاريخ الذى ضل الطريق بعد صلاح الدين.

بينما أوروبا تدعم أسبانيا حتى سقطت «أشبيلية» فى يد الأسبان فى ١٢٤٨م، وهو العام الذى قادت فيه فرنسا حملة أوروبية صليبية سادسة بقيادة الملك الفرنسى (لويس التاسع)، وتجمعت فى قبرص لتهاجم مصر فى العام التالى، ونزلت بدمياط، وتمكنت من الإستيلاء عليها عام ١٢٤٩م، وفى العام ذاته طرد حكام البرتغال المسلمين منها.

وفى عام ١٢٥٠م تمكن البطل المملوكى «ركن الدين الظاهر بيبرس» فى معركة المنصورة من أسر الملك الفرنسى لويس التاسع بعد هزيمة حملته عسكريا، وقضى عليها تماما فى فارسكور والمنصورة.

والغريب أن الملك الفرنسى (لويس التاسع) بعد فشله الذريع فى حملته الصليبية العسكرية على مصر، وعلى الرغم من وقوعه أسيراً بأيدى المصريين فى «المنصورة» الغريب أنه بعد أن أفرج المصريون عنه وعاد إلى بلاده أدلى بتصريح لشعبه، وللجماهير الصليبية، ولملوك أوروبا المتحمسين للسيطرة على الشرق، وضع فيه برنامج عمل لحكومات أوروبا، حدّد فيه برنامجه السياسى، وذكر فيه تصوره عن كيفية إنهاء الصراع الإسلامى بما يجعله يميل للصالح الأوروبى الصليبى ويقضى على المقاومة الإسلامية من جذورها من خلال برنامج عمل محدد عبرّ عنه وشرح فى نقاط قائلا:

إنه لا يمكن الإنتصار على المسلمين من خلال الحرب، وإنما يمكن الانتصار عليهم بواسطة السياسة التالية:

(أ) إشاعة الفرقة بين قادة المسلمين، وإذا حدثت فلنعمل على توسيع شقتها ما أمكن حتى يكون هذا الخلاف عاملا فى إضعاف المسلمين.

(ب) عدم تمكين البلاد العربية والإسلامية أن يقوم فيها حكم صالح.

(جـ) إفساد أنظمة الحكم فى البلاد الإسلامية بالرشوة والفساد، والنساء، حتى تنفصل القاعدة عن القمة.

(د) الحيلولة دون قيام جيش مؤمن بحق وطنه وعليه يضحى فى سبيل مبادئه.

(هـ) العمل على الحيلولة دون قيام وحدة عربية فى المنطقة، والعمل على قيام دولة غريبة فى المنطقة تمتد من غزة جنوبا إلى أنطاكية شمالا، ثم تتجه شرقا، وتمتد حتى تصل إلى الغرب[1].

ومنه يتضح حقيقة الدور الفرنسى الرائد فى الدعوة لقيام دولة للكيان الإسرائيلى فى قلب العرب، وكذلك فى تحديد حدودها الجغرافية المعروفة بحدود دولة إسرائيل الكبرى التى يحلمون بها (من) النيل إلى الفرات.

وظلوا يعملون لأجلها فى الخفاء حتى جاء الإنتداب البريطانى على فلسطين، وأثناءه صدر وعد بلفور الشهير بإعلان قيام دولة يهودية فى فلسطين.

لقد رسمت فرنسا المخطّط، ووضعت أفكاره ومبادئه، وتبنته بريطانيا ونفذته. وجاءت بإسرائيل إلى الوجود، وضمنت أمريكا سلامتها، وأمنها وتفوقها على جيرانها... ولنا فى التاريخ المواعظ والعبر.

ثم جاءت آنذاك الطامة الكبرى على الشرق لتقضى على الخلافة العباسية فى ١٢٥٩م وتُدمِّر حضارتها الزاهرة، حيث هجم التتار على بغداد، ثم تقدموا نحو الشام يتزعمهم (هولاكو) وقتلوا عشرات الآلاف من المسلمين، وكان نصيب حلب وحدها من القتلى (خمسين ألفا)، ثم تهيأو لغزو مصر فخرج جيش مصر بقيادة «سيف الدين قطز» للقائهم، ومعه قائده اللامع بيبرس، والتقى الجمعان عند «عين جالوت» فى ١٢٦٠م فسحق جيش المماليك المصرى جيشَ المغول، وبدّد جموعه وأحبط مساعيه لاحتلال مصر، وفى الغرب سقطت مدينة قادش فى أيدى الأسبان المسيحيين فى ١٢٦٢م.

وفى المغرب العربى: قصد الصليبيون بحملتهم الجديدة بقيادة الملك الساذج الذى أهمل شئون بلاده، وأقحمها فى حروب لا طائل منها، وشغل نفسه كذلك بأعمال عسكرية، وحملات حربية لم يكن أهْلا لَهَا، فجاء إلى تونس فى ١٢٧٠م حيث الحضارة القرطاجية، ومات هناك الملك الساذج (لويس التاسع)، وفشلت الحملة الثامنة فى ذات العام.

وفى الشرق: تابع بيبرس مطاردة المغول فى العراق وطهر وادى الفرات من دناستهم فى ١٢٧١م، وخلفه بعد وفاته سنة ١٢٧٧م السلطان الأشرف «خليل بن قلاوون» الذى انتزع عكا من أيدى الصليبيين، وأنهى تماما عهد الحملات الصليبية على فلسطين، ولم يتبق إلا بعض المدن الساحلية فى يد الصليبيين، وإلى حين.

* * *

(١) تبصير الأذهان ببعض المذاهب والأديان ص٩.

خامساً : العبور الصليبى إلى آسيا

اتجهت أوروبا بكل قواها نحو مصارعة المسلمين، والقضاء عليهم، فبدأت بإخراجهم من الأندلس والبرتغال وفرنسا، والمناطق التى فتحوها فى أوروبا ، ثم الهجوم العسكرى المباشر على الشام ومصر، والعبور إلى جنوب المتوسط للتوغل فى إفريقيا، ثم السعى الحثيث للإنطلاق شرقًا نحو آسيا خاصة بعد أن اكتشف « فاسكودى جاما » طريق رأس الرجاء الصالح – أى – قمة الرجاء والأمل الذى يرجونه ويأملونه كطريق آمن وصالح لتحويل التجارة الأوروبية ومسالكها بعيداً عن الشرق الأوسط. فهو إذا الطريق الصالح كبديل عن الطرق العربية لذلك فهو (رأس الرجاء) وصِفَتُه أنه (صالح) للمهام الجديدة ، والآمال المرجُوّة. وخاصة لأنه ربط أوروبا بالهند فعلاً بدون الحاجة إلى البحرين الأحمر والمتوسط، وكان ذلك مؤشراً قوياً على الزحف الأوروبى المحتمل نحو الهند.

ويؤكد التاريخ أن أوروبا كلها قد تحرّكت للقضاء على الإسلام والمسلمين. دليلنا على ذلك الحملات الصليبية التى بدأت فى ١٠٩٥م ولم يشأ لها أصحابها أن تتوقف عنها حتى يومنا هذا، وعبوراً إلى الغد البعيد؛ وما قيام إسرائيل إلا دليلا حيا وقويا على صحة قولنا، وما دعمها ومساندتها وتسليحها إلا برهانا عمليا وفكراً منطقيا ينطق بأن طريق الصراع لازال طويلا، ولم يزل.

وإذا كانت أوروبا قد فشلت فى حملاتها الصليبية على مصر وسوريا، وفلسطين وتونس، فإن الروح الصليبية لا تزال كما كانت متأججة فى نفوس الصليبيين الذين باتوا يستغلون كل فرصة، وينتهزون كل موقف، ويوظفون كل حدث ويطوعونه كى يشفوا ما فى صدورهم من غل، وحقد، ويفرجوا ما فى أنفسهم من حنَق وتذمر، وهو امتداد لما كانوا فيه، وما يتطلعون إليه من محاولات للصراع ضد الدين الإسلامى الحنيف، وإجهاض فتوحاته، والاجهاز على أتباعه.

فجاء العبور الصليبى إلى آسيا معبراً عن صدق توجهاتهم، واضعا الهند نصب عينيه أولا نظرا للعلاقات القوية والقديمة التى تربط بين العرب والهنود منذ ما قبل الفتح الإسلامى. وبخاصة بعد أن توغل الإسلام فى نفوس الهنود بما قد يسمح عبر قليل من الوقت بقيام امبراطورية إسلامية عظمى تضم شرق آسيا، ووسطها، وآسيا الصغرى، والجنوب الغربي منها حيث (قبلة المسلمين وقلعتهم) مكة المكرمة، وتضم

كذلك الساحل الشمالى الإفريقى، بالإضافة إلى الممالك الإسلامية التى قامت فى إفريقيا بحيث تتفوق هذه الخلافة أو الإمبراطورية على العصرين الأموى، والعباسى بما حازت من قوة، وما أضيف لها من إمكانيات بشرية وإقتصادية، وقتالية، فى مجملها تجعل أوروبا الصليبية على شفا جرف هار ينهار بها إلى قاع التاريخ، أو قد يضع مستقبلها فى مهب الريح، خاصة مع ثراء الهند الفاحش الذى كان من الممكن أن يقدم دعائم الإقتصاد القوى الذى يقيم إن قُدرٍ له أعتى الإمبراطوريات وأغناها، وأقواها، وأشدها بأسًا وسؤددًا، بحيث تُخضع العالم لمشيئتها وتَجعله رهن إشارتها.

هذا الثراء الذى وصفه الإمبراطور (جهانكيز) فى مذكراته قائلاً: «كان ملوك الهند يُوزَنُونَ بالذهب فى الأعياد، ويُوزَعُون ما يساويها على الفقراء والمساكين، وكُنتُ أُوزنُ فى السنة مرتين: مرة فى أول السنة الشمسية، ومرة فى أول السنة القمرية، وأُنفق ما يساوى وزنى على الفقراء والمساكين، وكان الملوك يخرجون للتنزُّه مساء كل يوم، فيأخذ كل واحد منهم كيسين من المال، فيهما آلاف الروبيات، وفى الطريق يُوزَعُون هذه الأموال على الفقراء، فكان الشعب ينعم بالخيرات من كل ناحية، وكان كل دخل الهند لأهلها، لا يخرج منه شىء حتى تكدست الأموال عند كل الناس، وصارت الهند مضرب الأمثال فى الغنى، وهذا ما أغرى الغرب بالإتجار مع الهند، ولكنه اتجه لسلب الأموال بدل التجارة الحقيقية فانقلب ثراء الهند إلى وإنجلترا، فأصبحت إنجلترا تعيش فى رغد من العيش، فى حين يموت الهند جوعًا»(١).

ويمكن القول بأن البحرية البرتغالية كانت أسبق الدول الصليبية الإستعمارية وصولا إلى الهند، وقد سيطرت القوات البرتغالية على شرقى إفريقيا وعلى مسقط فى ١٥٠٨م بقيادة (البوكيرك) أشهر القواد البرتغاليين، وقد عرف عنه شدة تعصبه لدينه وبلاده، وقد استطاع أن يستولى على جزيرة «سقطرة» ليكمل للبرتغال السيطرة على الطريق الموصل إلى الهند، وقد أنشأ البوكيرك قواعد عسكرية برتغالية فى الطريق الجديد عند كل من هرمز، وسقطرة، وجُوا، ثم إمتد الطريق إلى ملقا.

وقد تمكنت البرتغال من تكوين جيشها القوى وبناء أسطولها البحرى، ثم القيام بحركة الكشوف الجغرافية، بعد تأسيس مملكتها فى الفترة من ١١٣٨: ١١٣٩م على أطلال الحكم العربي بعد طرد المسلمين والعرب من البرتغال كما ذكرنا سابقا.

(١) تاريخ الإسلام فى الهند ص٣٨٠، ٣٨١ د.عبدالمنعم النمر.

وقد تمكن البرتغاليون من الوقوف على أسباب التقدم الكبير فى فروع العلم، والمعرفة حتى تمكنوا من إنشاء امبراطوريتهم بمعدل سريع وفى زمن قياسى، الأمر الذى جعل البرتغال هى صاحبة السبق والريادة الأوروبية فى سيادة البحار، والقيام بالإكتشافات البرتغالية منذ عام ١٤٩٨م، وكذلك تمكن البرتغاليون من إقامة جيش قوى تمكن فى وقت قصير من إقامة قلاع عسكرية على طول الساحل الإفريقى الغربى حيث تم إنشاء قاعدة تجارية على ساحل الذهب (غانا) سنة ١٤٨٢م، وفى شرق إفريقيا حيث أقامت مراكز تجارية فى موزمبيق سنة ١٥٣١م، ووصولا إلى الهند، وما كان ذلك ليكون إلا بفضل العلوم العربية، والرحالة العرب، والعلماء العرب الذين برعوا فى علوم الفلك والنجوم والصناعات العسكرية والمدنية على السواء، وقد حقق البرتغاليون أقصى استفادة ممكنة مما برع فيه العرب ونبغوا ... وذلك هو الدرب ذاته الذى سار عليه الأسبان الذين تمردوا على الحكم العربى الإسلامى لبلادهم وتمكنوا من القضاء عليه فى ١٤٩٢م وقد استفاد الأسبان جيدا من الحكم العربى الإسلامى لبلادهم التى كانت رمزاً لحضارة الدولة الإسلامية فى أوروبا، ولما وقف الأسبان على علوم العرب فى الطب والبحار والرياضة، والفلك، والفنون، والآداب، ومختلف فنون العلم والمعرفة، بما يسمح لهم بممارسة سياسة الدولة أعلن ملكهم (فيليب الثالث) سنة ١٦١٠م طرد نصف مليون أندلسى ممن أُجبروا فى السابق على اعتناق المسيحية أو تظاهروا بذلك – إلى خارج أسبانيا فهاجروا إلى مصر وتركيا والمغرب، وحتى فرنسا بينما بلغ جملة من هاجروا من الأندلس فى عام ١٤٩٢م وفى عام ١٦١٠م حوالى ثلاثة ملايين مسلم، غير الملايين التى أبيدت والملايين التى هاجرت قبل ١٤٩٢م[١].

عموما، فقد ظلت البرتغال سيدة الموقف بلا منازع لمدة تُقارب المائة عام، ولم يضعفها ويهدد وجودها غير وقوعها تحت الإحتلال الأسبانى عام ١٥٨٠م مما أتاح لدول أوروبية أخرى دخول حلبة المنافسة بالزحف إلى المناطق الأسيوية والإفريقية للإستيلاء عليها أو إقامة امبراطوريات لها، وهذه الدول هى (هولندا، فرنسا، إنجلترا).

وكان البرتغاليون قد عملوا على أن يضُموا إليهم بعض جماعات الهندُوس التى تمقُت المسلمين، وتكرههم بشدة بقصد اتخاذهم وسيلة داخلية لخلخلة الدولة

---

(١) موجز تاريخ العالم ص١١٨، ١١٩.

الإسلامية، وإضعاف سلطتها فى البلاد، غير أن البرتغاليين أساءوا معاملتهم للهندوس، ولم يحفظوا لهم عهدهم، وأبخسُوهم حقوقهم، الأمر الذى أجبر هؤلاء إلى حسن استقبال الوافدين الأوروبيين الجدد، وانقسموا إلى أتباع ثلاثة مع كل من الهولنديين، والفرنسيين، والإنجليز الذين تسابقوا للسيطرة على الهند وجزرها الشرقية .

وكانت هولندا صاحبة السبق فى الوصول إلى الهند بعد البرتغاليين، فَسيطرت على بعض المناطق فى جزر الملايو واندونيسيا التى دخلها الإسلام منذ عام ١٤٠٠م وتغلغل فى نفوس أبنائها بفضل نزاهة التجار المسلمين وأمانتهم، وأخلاقهم، كما طردت البرتغاليين من ملقا سنة ١٦٠٦م، وقد أسس الهولنديون عاصمة امبراطوريتهم الإستعمارية فى جزر الهند الشرقية فى جزيرة (جاوا) الإندونيسية وأطلقوا عليها اسم (باتافيا) ، وضمت إليها جزيرة سيلان، كما أنشأت هولندا بعض المراكز التجارية، والإستعمارية فى الهند مع تركيز اهتماماتها بالهند الشرقية وجزرها الشاسعة مما سمح للإنجليز بالتوغل فى الداخل الهندى، أما فرنسا فقد قنعت ببعض المناطق على الساحل عند (كاليكوت) .

ونتيجة لهذا الصراع الأوروبى حدثت بعض المقايضات، وقُدِّمت بعض التنازلات خاصة مع قدوم الأسبان الذين ورثوا البرتغال فى الهند .

وقد تمكنت إنجلترا باستعمال أساليب دبلوماسية ملتوية أن تتخلص نهائيًا من فرنسا، وأن تقضى على نشاطها تماما فى شبه القارة الهندية.

وباتت الهند تحت هذه الظروف مقسمة ثلاثة أقسام :

١- قسم مستقل فى الشمال فى منطقتى (نيبال، وبوتان) وسكانها من الهندوس الأقوياء الشجعان، والأراضى فيها وعرة وغير مستوية، وقد قنع الإنجليز من هذا القسم بأن يكون لهم فيه مستشار فقط.

٢- القسم الثانى: وكان تحت الحماية البريطانية ويشمل مناطق (حيدر أباد، كشمير، ميسور) ويدفع حكام هذه المناطق خراجا للإنجليز نظير حمايتهم لهم.

٣- القسم الثالث: تقوم إنجلترا بإدارته مباشرة، وهو يشمل مناطق (البنغال، البنجاب، مدراس، وبمباى)[١].

وأعلنت بريطانيا فى ١٨٥٨م عن تبعية الهند للتاج البريطانى (المرصع بالماسة

---

(١) باكستان فى ماضيها وحاضرها ص١٨ د.عبدالحميد البطريق .

المسروقة من شاهجهان دلهى – كما سبق) وبالتالى أصبحت المواجهة الإستعمارية مباشرة وبارزة ضد المسلمين فى كل اتجاهاتها وتوجهاتها، وازداد القمع ضد الهنود، وقد عمل الإنجليز على تغيير اللغة، ومناهج التعليم، فحلت اللغة الإنجليزية مكان الفارسية (لغة البلاط)، وبدأت سياسة الإحلال والإبدال فى الحركة الثقافية ومكونات أفكارها محل اللغة العربية، والثقافة الإسلامية السمحة، وبدأت بناء المدارس، والكنائس لخدمة المفاهيم الجديدة، وبناء الفكر الحديث الذى يسهل طبيعة عمل ومهام الجماعات التبشيرية المسيحية التى كانت قد بدأت بالفعل فى الظهور وفى ممارسة أعمالها حتى من قبل إعلان السيادة البريطانية على الهند .

ويمكن إيجاز التعبير عن انزحف الإنجليزى على الهند فيما قاله واحدٌ من إخوة دينهم، وبنى أوطانهم حيث قال غوستاف لوبون :

توصل الإنجليز لفتح الهند برجال الهند وأموالها، وبعبارة أخرى بجنود غير جنود إنجلترا، ونقودا غير نقودهم، فالحق أن الهند دانت للإنجليز بجيوش مؤلفة من الهندوس، وبأموال أُخذت من خزائن الهند[1] .

* * *

(١) حضارة الهند ص٢٥٠ .

obeikandl.com